صدمة الحملة الفرنسية وطبيعة العلاقة المعقدة مع المصريين
(مقاربة تاريخية ونفسية)

أ.د. مجدى عبد الحافظ

شكلت الحملة الفرنسية للمصريين صدمة حقيقية وبكل المقاييس. ولم يكن هذا بسبب المقارنة المستحيلة فحسب، التى قام بها البعض بين جيش بونابرت الحديث وجيش المماليك التقليدى الذى لم يعلم منذ الغزو العثمانى أن الفروسية لم تعد صالحة للحرب الحديثة، بل كان أيضا بسبب هذا النموذج المبهر والناجح الذى أتى مع الغزو والعدوان. وخلق ذلك نوعاً من التوتر لدى الطبقة الوسطى خاصة (المشايخ والتجار والأعيان..) الذين اتسم تعاملهم مع هذا الغازى "بالازدواجية النفسية": فكيف نقاوم الغازى، ونستعين فى الوقت نفسه بتنظيماته وتقنياته التى ثبت بالدليل العملى نجاعتها؟ أكثر من ذلك تعمقت الصدمة حينما وجدت الطبقة الوسطى نفسها أن إنجازها التراكمى الذى حققته قبل الحملة قد تبخر عن آخره، بمجرد ظهور هذا النموذج الجديد الذى حملته الجيوش الغازية. من هنا يمكن القول إن الحملة الفرنسية تسببت فى منع إمكانيات النمو الذاتى للمصريين على القاعدة التى أسسوها تدريجياً طوال القرن الثامن عشر. فعلى عكس الشائع كان ثمة إمكانية حقيقية لإنجاز "حداثة محلية" تستجيب لظروف الواقع؛ وذلك لتوافر العناصر اللازمة. لقد تم إجهاض هذه الإمكانية فى مهدها عندما قارن المصريون

obeikan.com

بين مجتمعهم والمجتمع الذى عكسه رجال الحملة ممن اختلطوا بهم بطريقة مباشرة خلال سنوات الحملة القليلة. لقد قدمت لهم الحملة نموذجا جاهزاً، وقابلاً للتطبيق، فَلِمَ الجهد الذى يبذلونه لإيجاد النموذج المحلى؟ لقد أعطتهم الحملة النموذج – بطريقة غير مباشرة – فقبلوه، بدلا من تخيله واختراعه![1]

وهذه النقطة تحديداً هى المعنى بها فى هذا المقال. وسوف نعالجها على مستويين، الأول: المقاربة التاريخية والثانى المقاربة النفسية، ثم نحاول من خلال المقاربتين تقييم التجربة الصدامية فى ضوء بعديها التاريخى والنفسى.

المقاربة التاريخية :

كان المشايخ يشكلون القلب من الطبقة الوسطى باعتبارهم إحدى القوى الحية التى تشكل منها المجتمع المصرى فى هذه الآونة؛ إذ كانوا نخبة العلماء والمثقفين والكتاب والمؤرخين وتكونت لديهم ثروات ضخمة (الأوقاف، والرزق الأحباسية) دون دفع ضرائبها. ورغم هذه الحقيقة الواضحة إلا أن البعض يتصور أن نفوذهم لم يبرز سوى بعد الحملة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص بعد اشتراكهم فى الديوان الذى أنشأه بونابرت. تاريخيا نعرف أن الأزهر ومشايخه ظل عبر اشتداد الظلم، وقام المشايخ بأدوار مختلفة بين العامة والمماليك، وعمل أغلبهم بالتجارة، وكانوا فى مأمن من مصادرة أموالهم؛ وتراوح دورهم بين السلبية والإيجابية قبل مجيء الحملة[2]. وأثناء الحملة تعرف المشايخ والتجار بحنكة كبيرة حفظت لهم مصالحهم وأموالهم، إذ تخلو الكتابات التاريخية من أى دور لعبه المشايخ الكبار ضد زحف الفرنسيين من الإسكندرية وحتى القاهرة، وكذا لم يشاركوا فى المعارك الأساسية (شبراخيت، إمبابة، والأهرام) وكان العامة والحرافيش إلى جانب فرسان المماليك فى مقدمة المتصدين. كما لعب مشايخ وعلماء القاهرة الكبار الدور الأكبر فى تسليم القاهرة للفرنسيين بعد فرار المماليك، وهم الذين أخذوا الأمان من بونابرت. ولم تكن تلك الرزانة السياسية تعبر عن ضعف وخمول، بل كانت تشى ببعض ملامح هذا المشروع المحلى الجنينى للحداثة. إن التراكم المالى الذى توفر لديهم

دفعهم إلى أن يحسبوا خطواتهم التى لم تتسم أبدا بالتهور فيخسرون أموالهم من جهة، ومن جهة أخرى كان لديهم حاجة ملحة فى التساؤل عن الكيفية التى يمكن بها استثمار أموالهم فى ظل الأوضاع المملوكية المتردية. مع المماليك افتقدوا الأمن والأمان، على مستوى طرق التجارة، وعلى مستوى القوانين التى يمكن أن تنظم المعاملات والضرائب فى البلاد. من هنا كان موقفهم المتوجس والحذر من الحملة، وفى الوقت نفسه كان لديهم نوع من الأمل لعلهم يجدون شيئا جديدا لدى الغزاة. هذا الخليط من الرهبة والأمل دفعهم إلى الانتظار والترقب. لقد سمعوا من التجار والأجانب المقيمين بعضًا من البروباجندا التى طيرها بونابرت قبل زحفه على مصر، ولعلهم يجدون ما يخالف ما عهدوه لدى الأتراك فى مقاومته حينما أرسل إليهم رسالته الأولى قائلاً : "إنى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعا بعدم مقاومتى، إنى جئت لإبادة المماليك وحماية التجارة وأهالى البلاد الأصليين وفليطمئن الخائفون وليرجع الفارون إلى بيوتهم، وليستمر الأهالى على إقامة الشعائر الدينية كالمعتاد، واطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم، واطمئنوا على دينكم الذى أحترمه".[3]

موقف المشايخ هذا تم التمسك به خلال سنوات الحملة الثلاث، فعندما شكل بونابرت ديوانه وجدنا على رأسه المشايخ الذين لعبوا قبل الحملة أدواراً سياسية، خاصة فى عام الحجة سنة 1795 مثل : الشيخ السادات والأمير والبكرى إضافة إلى السيد عمر مكرم. ولم يشارك المشايخ الكبار على الإطلاق فى ثورة القاهرة الأولى، رغم أن الضرائب والإجراءات التى فرضها الفرنسيون كانت قد طالتهم، أكثر من ذلك أصدر ديوانهم خلال الثورة بيانين لتهدئة النفوس متهمين المماليك بإثارة الفتنة. ولم تسلم الثورة من نقد المشايخ، فالجبرتى المؤرخ وهو أحد المشايخ ينتقد الثورة والثوار بأقذع الألفاظ : فوصف العامة من الزعر والحرافيش الذين كانوا يسكنون القاهرة بأنهم خرجوا عن الحد "وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور الناصرى والشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا

الودائع والأمانات وسبوا النساء، والبنات"[4] ولم يكن هجوم الثوار على مصالح المسيحيين من الأروام والشوام سوى لتعاونهم مع المحتل. ولم يشترك فى الثورة سوى صغار المشايخ وهؤلاء لم يكن لديهم ما يخافون عليه، لذا ليس بغريب أن يكونوا هم العقل المدبر للثورة[5].

ولم يشترك المشايخ فى ثورة القاهرة الثانية أيضا، بينما اشترك التجار الذين طالتهم آثار الحصار البريطانى على موانئ البلاد، ومَنْ اشترك من المشايخ كان تحت إجبار العامة الذين وصفهم الجبرتى "بالأوباش والحشرات"، كما وصف أحد المغاربة ممن تزعموا الثورة بأنه "ليس ممن له فى مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك بل قيل لا ناقتى فيها ولا جملى"[6]. وعدم اشتراك كبار المشايخ الذين اتسموا طيلة الوقت بموقف المنتظر، قادهم إلى الإساءة لهم من قبل العامة من الثوار فأهانوهم وضربوهم كما حدث للشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى؛ إذ أخذت "تضربهما الانكشارية ويسبوهما العامة بأقذع الألفاظ ويرموا عمامتيهما، وهذا الشيخ خليل البكرى يسوقه العامة عارى الرأس ذليلاً فى الشوارع، وكذا فعلوا بالشيخ المهدى والفيومى وغيرهما"[7].

و أصيبت التجارة الخارجية فى ظل الحملة الفرنسية بأكبر نكسة؛ بسبب الحصار الذى أحكمه الإنجليز على موانئ البلاد ومنعه التجارة الواردة والصادرة. وكانت ضربة كبرى للآمال التى عُلقت على النظام الجديد. فقد حلموا بالمكاسب الكبرى التى ضاعت وسط الحصار، كما حلموا باستتباب الأمن الذى ضاع وسط ثورات الأهالى ضد الفرنسيين، فلم يطلهم منها سوى الفوضى والقهر والقسوة. لقد وصل المشايخ إلى قناعة -بعد الفشل الذريع لكل مخططات الحملة الفرنسية- أنه من الخطورة الاعتماد على قوة خارجية لضمان حرية مشروعاتهم الاستثمارية. فعلى الرغم من أن الحصار كان فرصة تاريخية لكى يستثمروا فى مجال الصناعات التى توقف ورودها بعد الحصار، وكانت الخبرة الغنية متوفرة لدى الفرنسيين ولدى من اتصل بهم من المصريين وكانت الفرصة متاحة لتعلم مهنهم خاصة وأن الحملة اعتمدت على موارد مصر الداخلية فى تلك الآونة، على الرغم من ذلك فإنهم لم

يستطيعوا استثمار الفرصة، وهذه نقطة جديرة بالدراسة والبحث لمعرفة أسباب ذلك. ورغم القناعة التى استخلصوها من خطورة الاعتماد على القوى الخارجية إلا أنهم وبسبب تفتحهم، واستعداداتهم السابقة، وحملهم لمشروع جنينى محلى سرعان ما تركوه جانباً، والتفتوا إلى تلك النظم والتقاليد والإجراءات السياسية التى حملتها الحملة الفرنسية والتى لم تكن كل جوانبها شديدة السواد.

فعند نزول الثمانية والثلاثين ألف جندى فرنسى فى الإسكندرية، صحيح لم تكن مصر خرابا تاما، وصحيح كان لديها مشروعها المحلى، لكن الصحيح أيضا أنه عقب معركة الأهرام حينما انهزمت فلول المماليك هزيمة ساحقة على يد الفرنسيين، انتظر القاهريون أن يساقوا بحد السيف من قبل المنتصرين. إلا أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا مختلفين عمن جاءوا قبلهم. حيث اتسمت أفعالهم على نحو ظاهر – فيما عدا إخمادهم العنيف لثورتى القاهرة الأولى والثانية – بأنها أقل تعسفا عما عهدوه من قبل. واندهشوا عندما رأوا هؤلاء الفرنسيين الغزاة وهم يشترون غذاءهم من التجار بدلا من أن ينهبوه، وهم يُحاكِمون بعض جنودهم الذين اتهموا بالسرقة أو الاغتصاب بأحكام وصل بعضها للإعدام. وإذا بدا هذا المنطق المنتصر فى البداية غير معتاد بل محير وغير مفهوم فى نظر المصريين إلا أنهم قد افتتنوا به فيما بعد.

المقاربة النفسية(*) :

كان لهذا الجانب التاريخى وجه آخر ثقافى لا يمكن فهمه إلا عبر المقاربة النفسية، إن تسربل الثقافة الغربية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص لتقاليد وأعراف وعادات المصريين عقب الحملة عمل على أن تتشكل فى أذهانهم ما يمكن تسميته بـ "الأنا الحائرة"، مما أدى إلى حالة عدم اتزان "للأنا الجماعى"، الذى يهدف إلى حماية وعى الأفراد من فظاظة قيم الغزاة التى جلبت أفكارا وممارسات، اتسمت بأنها ساحرة وصادمة فى الوقت نفسه، وبأنها غير قابلة للتمثل؛ إذ عندما يخضع الجهاز النفسى للفرد للإفراط فى الإثارات التى تأتى من الخارج تحدث "صدمة" تتحدد درجتها تبعا لكيفيات التمثل الذى تحققه الحياة النفسية.

يستمر هذا الاستلهام فى توسع الأنا من خلال "تمثُّل" فعلى سواء لتلك الاستثارات الغريزية للفرد أو لتلك الاستثارات التى تنبثق من المحيط الاجتماعى والطبيعى والتى تكون بمثابة مهدد للغرائز الفردية، التى تؤثر بدورها على الاستثارات الاجتماعية من خلال الفكر والإيماءة والأداء، وتأخذ تلك العمليات فى التحليل النفسى مفهوم "عملية الإدماج النفسى". إن طابع التباين المفرط للثقافة الفرنسية التى بُثت فى المصريين فى نهاية القرن الثامن عشر، جمّد تحديدا لديهم عمل الإدماج على المستوى الجماعى. وإذا كان الاختلاف مصدر ثراء، إلا أنه كان عنصراً مفسدا فى حالتنا تلك، حيث كان الاختلاف بين إسهامين : الأول "مستعار"، والثانى "أصيل".

النتيجة المباشرة لتلك الصدمة الحضارية هى الجنوح نحو تطبيق نوع من المبادلات الديناميكية الذاتية الخاصة بالروح المصرية، وهى مبادلات كانت تهدف حتى هذه اللحظة إلى التصالح والتسامى، وذلك عن طريق التفاعل بين طموحاتها الآنية وجذورها الفرعونية/ الإسلامية. ونظرا لعدم القدرة على تمثل القيم الفرنسية، لاسيما لدى المصريين الذين كانوا على اتصال مباشر بجنود وعلماء بونابرت، نجد أن هؤلاء المصريين قد احتفظوا بتلك القيم فى شكل جسم غريب، دون أن يقوموا بعملية "تمثُّل" نفسى لها. من هنا نرى أن تلك الذكرى غير المتمثلة للتجارب المعيشة، وللقيم الغربية الآنية عن طريق الفرنسيين قد ظلت فى حالة تطفل على الروح المصرية بطريقة حققت فيها نوعا من "أنا حائرة". وبالإضافة إلى طابع التباين الجذرى للثقافة الغربية بالنسبة للمصريين، فإن طبيعة روابط المودة – الخاصة– والتى كانت قد نُسجت بين بعض الفئات فى المجتمع المصرى والفرنسيين أثناء الاحتلال تظل أساسية لكى نفهم لماذا لم يسمح مع ذلك مرور الزمن "بتمثل" جماعى للإسهام الفرنسى؟

ثمة طابعان يمكن ذكرهما : الأول : إلى جانب رد فعل الأغلبية بالرفض المعادى من قبل المصريين، كان هناك عديد من روابط التعاطف الفضولى والمفتون والذى ظل طى الكتمان – خاصة من الجانب المصرى – بين الطرفين.

والثانى : قُطعت هذه الروابط بعنف بعد هزيمة الحملة عسكريا، إذ هلك ثلثى الجيش الفرنسى خاصة عند كرسى القديس يوحنا المعمدان، ووجد الناجون منهم أنفسهم مجبرين على الاستسلام سريعا للإنجليز. إجمالا كان هناك بين أعوام 1798 و1801 علاقات شخصية قوية بين المصريين والفرنسيين، وهذه العلاقات استثمرها الطرفان، ولم تعرف أبدا نهاية عنيفة، إلا أنها قد توقفت فى الوقت الذى لم تستطع فيه المشاعر والتمثلات من جانب الطرفين أن تندمج بطريقة مناسبة. عاد الفرنسيون من الحملة ليعيدوا ارتباطهم "بنزعة الولع بمصر" Egyptomania، وهى نزعة مستقرة فى الغرب منذ قرنين على الأقل؛ وذلك لكى يعبروا عن انفصالهم المؤلم عن أرض الأهرامات وسكانها. كان ممكنا أن يُقام الحداد لديهم تدريجياً، بفضل الآثار والكتابات والرسوم التى جلبوها معهم. على حين أن المصريين لم تكن لديهم نفس الإمكانية، خاصة بسبب علاقات المودة المخجلة فى نظر الأقارب (خاصة أفراد العائلة)، والذين ظلوا فى حالة ترقب، حيث إن قيم ونوايا الغزاة لم تتح لها الفرصة لكى تُفهم أو تدمج. وبداية من تلك اللحظة وقعت الثقافة المصرية فريسة لموقف حداد معقد بمبادلاتها الإنسانية والثقافية مع غازيها الفرنسى الغربى. ولعل آثار هذا الموقف مازالت تميز العلاقات بين مصر والغرب حتى اليوم. بصفة عامة قاد موقف -عدم الاندماج النفسى- هذا "الذات الفردية" أو "الجماعية الحائرة" إلى أن تطبق ما نسميه فى علم النفس "التوحد بالمعتدى" Identification à L'agresseur

يمثل هذا المصطلح وسيلة دفاعية نفسية عندما تتعرض الذات لخطر خارجى فتستخدمه لكى تحافظ على تماسكها العقلى : "فيتوحد الشخص المعتدَى عليه بالشخص المعتدِى، إما بأن يعيد أخذ الاعتداء كما هو لحسابه، وإما بالتقليد النفسى أو المعنوى لشخصية المعتدى، وإما بتبنى بعض رموز القدرة التى تميزه"(8).

كانت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر تتطور فيها الأفكار بشكل خجول وناشئ، وداخل هذا النموذج لم تستطع "النزعة الحديثة" والتى هى فى واقعها متطورة، إلا أنها غير متكيفة مع الثقافة المحلية، لم تستطع أن تكسب أرضا جديدة.

إن ما زعمه الفرنسيون من مهمة حضارية فى مصر قد سد الطريق على المكتسبات والتحولات الآنية المحلية للمجتمع المصرى الذى قد باشر "التحديث" لتوه. كانت هناك فكرة رائجة فى الغرب ضمن "نزعة الولع بمصر" تقول إن مصر مشلولة تماماً فى تطورها بسبب المماليك، وعلى الرغم أن الحملة كان من أهدافها الرئيسية قطع الطريق على إنجلترا ومستعمراتها الهندية، إلا أن الفرنسيين كانوا قد رفعوا شعارات أخرى تخفى الأهداف الرئيسية وذلك بادعائهم أن الحملة موجهة لكى تتيح للأمة المصرية أن تولد من جديد لكى تجد بعض من الروعة التى تشهد بعظمتها الماضية، وذلك لن يتأتى إلا بعد أن يقهر الفرنسيون الاستبداد والظلامية فيها. وإذا كان المصريون قد اعتبروا أن الحملة الفرنسية قد أسفرت عن ثقافة وحداثة زائفتين، فهذا يعود بقدر كبير إلى أن الفرنسيين والغرب – بصفة عامة – قد أنكروا تلك الحداثة الجنينية المحلية الكامنة، والتى كانت قد بدأت فى القرن الثامن عشر بمصر. وكما رأينا فقد قطع الطريق عليها من خلال إحالة قسرية إلى الماضى الفرعونى وبعد عقود قليلة حدث تبادل ثقافى بين مصر وفرنسا تحت حكم محمد على، إلا أن الإسهام الغربى لم يستطع الاندماج على الصعيد المحلى بالحداثة المصرية الوليدة، وذلك بسبب الصدمة الحضارية الأولى. هذه المحاولات فى الإخصاب المشترك للأفكار وللخبرة العملية لم تبلغ إذن هدفها.

والملاحظ فى العديد من الكتابات عن مصر صعود فكرة التفوق الغربى لدى المصريين مع إحساس حى بالخجل خاصة فى القرن التاسع عشر والعشرين مما أدى إلى ظهور ما نسميه غالبا "بعقدة الخواجة". وهى تبدو فى نظرنا مترجمة لهيئة نفسية نموذجية لمحاولة إعداد لما بعد الصدمة للتوحد فى المعتدى. إذ بعد توحدها فى شخصية المعتدى عليها، تحت طائلة تفكك الشخصية بتأثير العنف الواقع عليها، تستعوض الضحية تدريجيا هويتها، والتى كان عليها أن تتخلى عنها عندما ترنحت معالمها. إعادة التملك الأليمة تلك للتراث تتم فى سياق عاطفى من الخجل والذنب المعنيين، بالإضافة إلى أن الحنق على الذات يتقوى بفعل أن العدوان قد ترك المعتدى سالما (وفى بعض الأحيان مقوّى) فالضحية تتطلع حينئذٍ لسلطته. كما يبدو أيضا أن

على المستوى الجمعى حادثة نفسية من ذلك النوع جرت محاولة المصريين للاتصال بالفرنسيين بين أعوام 1798 و 1801 بفعل التوحد الفاشل بقيم الغازى. وفى إطار عملية التوحد تلك مرت "منجزات الحداثة" من أوسع الأبواب، وساهمت فى أن يطرأ على المجتمع تغيرات كبيرة، بل وأحدثت طرقا جديدة فى الحياة واستعمالات وأدوات جديدة، وآليات غير مسبوقة .. إلخ. إلا أن هذه المنجزات ظلت أيضا "هامشية" على سطح الحياة ، لأنها لم تستطع تعمق وجودها فى أذهان المصريين، وظلت العقلية المهيمنة أقرب إلى التقاليد والتراث، وربما حتى الآن.

مر أكثر من قرنين على حدث الحملة الفرنسية (وهو حدث لم يستغرق حدوثه سوى ثلاث سنوات وبضعة أشهر) إلا أنه ما زال ماثلاً فى أذهان المصريين. وبعيدا عن المقاربة التاريخية والنفسية.. ألم تأت الحملة بالمطبعة لأول مرة بمصر؟، ألم يكن كتاب وصف مصر، وفك شفرة الهيروغليفية من أهم نتائج الحملة؟ لكن ألم يأت كل هذا فى سياق الغزو والاحتلال؟ ألا يعكس هذا الأمر موقفنا الازدواجى والملتبس حتى اليوم؟!

الهوامش

(1) انظر كتابنا؛ جمال الدين الأفغانى وإشكاليات العصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 31.

(2) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن ثروات المشايخ ودورهم قبل الحملة، راجع مقالنا : الوعى السياسى فى مصر ما بين عام الحجة وتولية محمد على، بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، عدد 57، فبراير 1992.

(3) المرجع السابق، ص 185.

(4) الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار الجبل، بيروت 1978، جـ2، ص 212.

(5) د. محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، ص 69.

(6) الجبرتى ، مرجع سابق، جـ1، ص 430.

(7) المرجع السابق، ص 433.

(*) ورقة قدمها الباحث بالاشتراك مع د. باسكال هاشيه، بالندوة الدولية الموازية لبينالى القاهرة الدولى الخامس 1994.

(8) (J) La planche , (B) Pontalis, Vocabulaire de la Psychanalyse, P.U.F., 1967, p.190.

* * *

obeikan.com